الدارة :

عملا بحرية النشر؛ تنشر تعقيب الدكتور محمد عمارة ونود الايضاح بأن دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب رحمه الله كانت تجديدا لعقيدة التوحيد الخالص والرجوع الى مذهب السلف والتمسك بالقرآن والسنة النبوية المطهرة، وقد فهمها واستجاب لها المنصفون فكانوا لها دعاة ومناصرين وقد كان هدف الاستاذ محمد كمال جعفر هو توضيح وجلاء حقيقة هذه الدعوة.

تعقيب

دَعوَات التجديدُ السَّلفية

بقلم : د . محمد عمارة

فى (الدارة) ـ عدد ربيع الثانى ١٤٠٣هـ يناير ١٩٨٣م ـ طالعت للأخ الأستاذ محمد كمال جمعة ملاحظات تحت عنوان : « تصحيح وايضاح » تضمنت حديثا أخويا حول دراسة لى عن دعوة الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢م) نشرتها بمجلة (الهلال) ـ ابريل ١٩٨٢م ـ تحت عنوان « دعوات التجديد السلفية » .. وأيضا حول الفصل الذى كتبته عن « الوهابية » فى كتابى « تيارات اليقظة الاسلامية الحديثة » طبعة كتاب الهلال ـ القاهرة ـ اغسطس ١٩٨٢م .

وللحقيقة ، فلقد ترددت كثيرا فى كتابة هذا التعقيب على هذه الملاحظات .. والسبب هو موقف التزمته حتى الآن ، أن أترك مايثور ويثار حول ماأكتب للباحثين والقراء ، الذين يطلعون على ماأكتب وعلى مايثور ويثار حول ماتتضمن كتاباتى من اجتهادات وآراء ..

لقد أثارت مؤلفاتى وتحقيقاتى ـ التى اقتربت اعدادها من الستين ـ العديد من ردود الفعل ، بين معارضة وتأييد .. ولقد التزمت طوال حياتى الفكرية أن أدع العمل ، بعد الفراغ منه : الى اصحابه ، من الباحثين والقراء ، لأفرغ لعمل جديد ، وعزفت دائما عن المشاركة فى الجدل حول ماأثارت وتثير أعمالى الفكرية من ردود أفعال .. دون غضب من النقد ، بل ولا حتى التحامل الظالم ، يقينا منى بأن الانخراط فى الحياة الفكرية لابد وأن تلازمه ألوان متعددة ومتناقضة من ردود الأفعال ..

التزمت هذا الموقف ، رغم اعتراض العديد من الزملاء والأصدقاء والقراء ..

لكننى ترددت حيال ملاحظات الأخ الكريم الأستاذ محمد كمال جمعة .. ثم اخترت التعقيب عليها لأسباب ، منها :

١ ـ أن هذه الملاحظات قد اتسمت بالموضوعية ، حتى لقد تعفف صاحبها عن اختيار كلمة (الرد) فى العنوان ، واختار كلمتى : « تصحيح وايضاح » .. ورغم حساسية الموضوع فلقد تحلى أسلوبه بأدب الاسلام فى الحوار .

٢ ـ تعلق موضوع البحث بدعوة الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب .. الأمر الذى يجعل له حساسية خاصة ـ ولا اقول مفرطة ـ لدى اخوة كرام فى السعودية وشبه الجزيرة العربية .. الأمر الذى يستوجب ايضاح المواقف ، بابراز الحقائق ، حتى لا تكون هناك ظلال من الحساسية فى امور وقضايا عدت أشبه ماتكون بـ « المقدسات »! ..

٣ ـ ماأشار اليه « تصدير » الملاحظات ، من انها قد كتبت فى إطار مؤسسة (دارة الملك عبدالعزيز) .. وبايعاز من معالى الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ ، وزير التعليم العالى ، ورئيس مجلس إدارة المؤسسة .. فهى إذن ليست مجرد ملاحظات تعبر عن وجهة نظر كاتبها ؛ وإنما هى موقف فكرى لمؤسسة فكرية ..

لهذه الأسباب ، استخرت الله ، سبحانه وتعالى ، وآثرت أن أكتب هذا « التعقيب » على ذلك (التصحيح والايضاح) .. وهو « تعقيب » أوجزه فى عدد من النقاط التى تعرض الملاحظات الأخ الأستاذ محمد كمال جمعه ، بترتيب ورودها فى مقاله :

فأولا : يرى الأستاذ جمعه أن الواجب كان يقضى بأن أبرز ان الشيخ ابن عبدالوهاب قد فتح باب الاجتهاد ـ مع تسليمه بأنه كان اجتهادا مقيدا ..

ولو رجع الأستاذ جمعة الى ص ٢٧ من كتابى (تيارات اليقظة) لوجدنى قد قدمت الشيخ ابن عبدالوهاب كأكثر من « مجتهد » .. لقد تحدثت عنه « كمجدد » للاسلام .. وقلت : « لقد أراد ابن عبدالوهاب أن يجدد الاسلام ، والتوحيد هو جوهر عقائده ومحورها ، فركز الجهد الفكرى كله على تنقية عقيدة التوحيد الاسلامى مما شابها .. »

ومعلوم أن « المجدد » لايمكن الا ان يكون « مجتهدا » .. وليس كل مجتهد مجددا .. فالشيخ ابن عبدالوهاب ـ عليه رحمة الله ـ أكثر من مجتهد .. انه مجدد فى اطار المجتمع والعصر الذى ظهر فيه ..

وثانيا : لايوافق الأستاذ جمعه على قولى ان فكر الدعوة الوهابية كان فقيرا فى حقل « الفلسفة » ..

وفى حدود علمى أن هذه « التهمة » ان جاز التعبير ـ هى احدى مفاخر الفكر السلفى عموما ؟! .. ففيم النقاش اذن ؟! .. واليست الفلسفة ، بل و « الكلام » مما يرفضه السلفيون ؟! ..

وثالثا : ينفى الأستاذ جمعه ان تكون الدعوة الوهابية قد اتخذت من « التمدن » موقفا غير ودى ..

ولى على هذه القضية الخلافية ـ الجوهرية ـ ملاحظات :

أ ـ فليس « التطبيق السعودى الحالى .. الذى لايحول دون الافادة من ثمرات العلم الحديث وتطبيقاته » .. ليس هذا التطبيق الحالى ـ الذى يستدل به الأستاذ جمعه على انحياز الوهابية للتمدن والعلم ـ ليس هذا هو موضع الحديث وموضوعه ..

ثم .. قال ان مظاهر « التحديث » التى تنحوها مجتمعاتنا العربية والاسلامية اليوم هى « التمدن » الذى نتحدث عنه ؟ .. نحن نتحدث عن « التمدن الاسلامى » ، بينما يتحدث الاستاذ جمعه عن « تحديث » هو فى رأينا ادخل فى اطار « التغريب » ؟!

ب ـ كما ان استخدام « الدولة » السعودية الأولى « البنادق التى تضرب بالفتيلة » ليس دليلا على الموقف الايجابى والودى من « التمدن » الذى نعنيه ، والذى عناه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥)فى نقده للوهابية .. فما نعنيه بـ « التمدن » هو التمدن الاسلامى ـ المتفاعل ـ من موقع التميز والاستقلال ـ مع تيارات التمدن الأخرى فى الحضارات الأخرى ـ وهذا التمدن ـ فى تراثنا ـ يرتكز على العلوم « العقلية » اساسا ، اى لايقف عند حدود علوم الوحى والشرع ـ وهذه العلوم « العقلية » لم تنظر لها الحركة السلفية ، تاريخيا ، نظرة الود او التشجيع .. وفى ظروف الدعوة الوهابية المبكرة لم تكن القضية مطروحة اصلا ، لطبيعة البيئة ومحدودية الاحتياجات .. فلا لوم على دعاة الوهابية الأوائل فى هذا المقام .. وماأشرنا اليه هو عدم ملاءمة هذا الموقف لبيئات أخرى تختلف عن « نجد » فى طبيعة التكوين ، ودرجة

التطور ، ونوعية الاهتمامات والاحتياجات ..

ج ـ ثم .. اننى لا أعتقد أن نقد الامام محمد عبده لموقف الوهابية من « التمدن » وعلومه ، كان أثرا من آثار التشويه المتعمد ، لأسباب سياسية ـ كما قال الاستاذ جمعه ـ فالشيخ محمد عبده سلفى .. ولم يكن متعاطفا فى يوم من الأيام مع خصوم الوهابية السياسيين ..

د ـ ثم .. هل حقا كان « التطرف فى فهم الدين » ـ الذى أثمر رفض « التمدن » ـ هو موقف « بعض زعماء (الاخوان) .. » فقط ؟ ـ كما يرى الأستاذ جمعه ـ أم كان ذلك سمة غلبت فى بعض مراحل الدعوة ؟!

فى اعتقادى أن علينا أن نفكر كثيرا وطويلا فى الرأى القائل :

ان الموقف غير الودى من « التمدن الاسلامى » وعلومه ، الذى اتخذته دعوات التجديد السلفية ، يتحمل نصيبا غير قليل من المسئولية فى انحراف « النخب » الحاكمة فى بلاد العرب والمسلمين نحو « التحديث الغربى » .. ففى غيبة هذا البديل الاسلامى الناهض المتمدن ، ألقى الغرب شباكه ، فاصطاد حكامنا وقادهم الى طريق « التغريب » بزعم أنه كان « الخيار الوحيد » ؟!

ودعوتنا الى التفكير فى هذا الرأى تبغى الى ماهو ابعد من « نقد الذات ، وتقويم التاريخ » .. فما أحوجنا اليوم الى العظة والاعتبار ، اذا نحن شئنا لأوطاننا تمدنا اسلاميا حقيقيا .. لامجرد « تحديث غربى » يشغل مكان « تمدننا الاسلامى المتميز » بل ويصيب بالتآكل القيم والعقائد المستندة الى علوم الوحى والشرع أيضا ؟!

ورابعا : ان نقدى « للخلط الشديد » بين ماهو « دنيا » وما هو « دين » ليس ـ كما حسب الأستاذ جمعه ـ : « نظرة علمانية ، تفصل بين الدين والدنيا » .. وبالمناسبة فلقد فندت « العلمانية » وكشفت عن طبيعتها الأوربية ، التى جعلتها وتجعلها غريبة عن فكر الاسلام ومجتمعاته فندتها فى اكثر من عمل فكرى واكثر من كتاب منها على سبيل المثال : « الاسلام

وفلسفة الحكم » ـ طبعة بيروت ، الثانية ، ١٩٧٩م و (الاسلام بين العلمانية والسلطة الدينية) ـ طبعة القاهرة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢ ..

وما أراه في هذه القضية ، هو «التمييز» ـ وليس « الفصل » ـ بين ماهو دنيا وماهو دين .. وهو « تمييز » استقر العمل عليه في السنة النبوية الشريفة منذ كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام ، في المواقف الكثيرة : يارسول الله ، أهو الوحى ؟ أم الرأى والمشورة ؟ .. ومنذ أن قال الرسول ، ﷺ ، لصحابته : ـ فيما رواه الأئمة : مسلم ، وابن ماجة ، واحمد ـ : « ماكان من امر دينكم فإلىّ ، وما كان من أمر دنياكم فشأنكم به .. انتم اعلم به .. انتم أعلم بأمور دنياكم .. » ..

ومنذ ان ميز علماء السنة وفقهاؤها بين « السنة التشريعية » و « السنة غير التشريعية » ..

انه « التمييز » بين « الدين » الذى هو وضع الهى ، لايخضع للتطور مع الزمان او المكان ، والذى اكتمل بتمام الوحى ، ولا يجوز في اصوله اجتهاد ولا رأى .. وبين « شئون الدنيا » التى هى « متغيرات » دعانا الاسلام إلى الاجتهاد فيها ، في ضوء كليات الدين ونصوص الوحى والسنة ، قطعية الدلالة والثبوت ، وعلى النحو الذى يحقق مصلحة مجموع الأمة ويرفع عنها الضرر والحرج .

وهذا « التمييز » هو الذى يدعو المسلم إلى ان يكون «سلفيا» في الدين ، يرفض البدع والاضافات والمستحدثات .. على حين يدعوه إلى أن يكون « مبدعا ومجددا ومضيفا » في شئون التمدن الدنيوى وعمارة الكون ، في إطار روح الشريعة وكليات الدين ..

فهى ـ كما ترى ـ ليست «علمانية » .. بل هى «الوسطية الاسلامية» التى ترفض كلا من «الكهانة» و «العلمانية» على حد سواء !

وخامسا : فى طبيعة الاتفاق بين الشيخ ابن عبد الوهاب وبين أمير «العيينة» عثمان بن حمد ابن معمر .. فان من يرجع إلى كتابى «تيارات اليقظة» ص ٢٩ و٣٠ سيجد العبارة : أن ابن عبدالوهاب قد دعا الأمير إلى أن يسخر سلطته وسلطانه لنشر دعوة التوحيد ، وتجديد عقائد الاسلام ، ومناه بأنه إن فعل ذلك ، ونصر «لا إله إلا الله» فان الله سبحانه وتعالى «سيملكه نجدا وأعرابها» .

فالامر فى نطاق التمنى على الله ـ وهو مشروع ـ وليس فى إطار التعهد من الشيخ بما لايملك الوفاء به ، كما قد يفهم من مظاهر العبارة الموجزة فى مقال (الهلال) ... ونص عبارة الشيخ ابن عبد الوهاب : « إنى لأرجو إن أنت قمت بنصرة لا إله إلا الله أن يظهرك الله تعالى ، وتملك نجدا وأعرابها » .. «والتمنى» و«الرجاء» مصطلحان متحدان ـ هنا ـ فى الدلالة والمضمون!..

ثم .. ألا يأتى فى هذا الاطار أيضا ، قول الشيخ ابن عبد الوهاب للأمير محمد بن سعود ، أمير «الدرعية» سنة ١١٥٨ هـ ، فى معرض اتفاقهما على التعاون لنصرة الدعوة ، قوله للأمير : « وأنا أبشرك بالعز والتمكين ، وهذه كلمة «لا إله إلا الله » من تمسك بها وعمل ونصرها ملك بها البلاد والعباد » ؟!..

وسادسا : وفيما يتعلق «بعرض الدعوة» الوهابية من قبل شيخها على أهل مكة والمدينة وزوارهما ..

فاذا لم يكن هناك خلاف على أن الشيخ قد أقام بمكة المكرمة والمدينة المنورة بعض الوقت .. « وصرح فى هذين المكانين الكريمين ببعض أفكار دعوته ، وبخاصة رفضه للبدع الشركية » .ـ كما يقول الأستاذ جمعه ـ

ففيم الخطأ التاريخى ؟!..

ثم .. من قال إن عبارة «عرض دعوته» غير مناسبة ، بحجة أن «هذه الصيغة فى القول تنطبق على رسول الله الكريم وحده » ؟!

لقد دعا الرسول ، ﷺ ، إلى الاسلام .. ونحن ندعو إليه ، مقتدين به .. وبشر بالتوحيد .. ونحن نبشر به ، متأسين ..

وكتب الرسائل ، داعيا إلى التوحيد .. وكذلك يصنع دعاة التوحيد اليوم ، كما صنعوا بالأمس ، وكما سيصنعون غدا .. ولم يقل أحد إن فى العربية صيغا يحرم استخدامها فى غير مقام السيرة النبوية .. فقط تختلف المعانى والمضامين باختلاف الأحوال والمقامات والمناسبات ..

وسابعا : لماذا الرفض لقولنا : إن الشيخ ابن عبد الوهاب كان يقود الجهاد بنفسه ؟!

قد لاتكون هذه القيادة قتالا فى طليعة جيش ابن سعود .. لكن .. ألم يتقدم الشيخ جيش عثمان بن معمر ، حاملا الفأس ، فهدم قبة قبر زيد بن الخطاب (١٢هـ ٦٣٣م) عندما تحرج الجيش من هدمه ، وقال عثمان بن معمر : « نحن لانتعرض لها » ؟ كما جاء فى كتاب (الدعوة الوهابية) للاستاذ عبد الكريم الخطيب ـ ص ٦٥ طبعة دار الشروق ـ القاهرة سنة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م نقلا عن « عنوان المجد فى تاريخ نجد » ج١ ص ٩ ، ١٠ ـ

وثامنا : إن وصف الأستاذ جمعه وجود الامام تركى بن عبد الله ، ثم ابنه فيصل بن تركى فى الجبل والرياض بأنه (الدولة السعودية الثانية) .. فيه كثير من التجوز فى استخدام مصطلح «الدولة» ، بالمضمون المتعارف عليه فى الأدب السياسى الحديث ..

وتاسعا : فيما يتعلق بموقف الشيخ ابن عبد الوهاب من شرط «قرشية» الامام .. ودلالة ذلك على موقف الدعوة من «الخلافة» العثمانية ..

فالذى أفهمه أن السلفية ـ منذ عهد إمامها أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م) تشترط أن يكون الامام (قرشيا فى الصميم)[١] .. والذى أفهمه أن تنازل السلفية عن هذا الشرط أو غيره من شروطها للامام خاص «بالضرورة» كامامة التغلب مثلا .

فالقول بأن أحد أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب ـ كما ذكر الاستاذ جمعه ـ قد قال : إن القرشى «أولى» بالامامة ـ إذا وضع فى سياق الفكر السلفى المشهور فى هذه القضية ـ

بنصرف إلى حالات الضرورة ـ « كامامة التغلب » ..

ونحن إذا قلنا : إن الوهابية قد اعتبرت العثمانيين «ولاة تغلب» .. أو أنها اعتبرت العرب القرشيين أولى من العثمانيين بالخلافة .. ففى ذلك ـ ولاشك ـ انحياز ـ أو على الأقل ميل ـ لعروبة الدولة والخلافة ، لايرضى عنه العثمانيون !

وعاشرا : أما القول بأن سبب تخلى «عثمان بن معمر» عن نصرة دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب هو سعى سليمان بن محمد ، رئيس بنى خالد والأحساء .. وليس ما حدث لأعراب الامارة من هزة نفسية ، بعد هدم قبة قبر زيد بن الخطاب ..

فلقد استندنا ، فى التعليل لهذا الحدث ، إلى عبارة كتاب (الدعوة الوهابية) التى تقول ـ ص ٦٥ ـ : « **ولقد كان لهذه الأحداث تأثير كبير فى إمارة العيينة ،حيث هدد كثير من جهاتها بخلع طاعة أميرها عثمان بن معمر .. وانتهى الأمر بأن تخلى الأمير عثمان عن نصرة صاحب الدعوة ، وطلب إليه أن ينجو بنفسه قبل الفتك به ..**»

ـ وهذه العبارة لم يحدث أن عقب عليها ، بالرفض أو التوضيح ، سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن محمد بن ابراهيم آل الشيخ ـ حفيد الامام صاحب الدعوة ـ وهو الذى عقب على ما رآه خطأ أو غير دقيق من فقرات هذا الكتاب وعباراته ـ

وحادى عشرة : أما عن تأثير الدعوة الوهابية خارج شبه الجزيرة العربية .. فان أمره لم يخف علىّ ـ اللهم إلا إذا كانت هناك مراجع لدى الاخوة فى (دارة الملك عبد العزيز) يسعدنى الاطلاع عليها والتزود بمعارفها ـ وأكون شاكرًا لهم هذا الفضل ـ ...

لقد قرأت ماكتبه صاحب (حاضر العالم الاسلامي)[٢] عن تأثير الوهابية فى (بنجاب) بشبه القارة الهندية .. وتأثيرها الجزئى فى السنوسية ـ وهو ما أشرت إليه فى دراستى عن السنوسية ـ لكن ، تبقى الحقيقة التى وصلت اليها قائمة ، وهى : اختصاص هذه الدعوة السلفية التجديدية العظيمة بالبيئة البسيطة التى نشأت فيها ، أو بما ماثلها من البيئات .. والأمثلة المضروبة من الأستاذ جمعة فى (التصحيح والايضاح) تدعم ما توصلت إليه ؟!

وأخيرا .. تبقى الحقيقة ضالة المؤمن ، عليه أن يسعى إليها ، وأنى وجدها فهو أحق بها ، وأولى باتباعها ..

وتبقى الرغبة الصادقة فى التزود بالمزيد من الحقائق عن الدعوة الوهابية من المراجع التى توفرت (دارة الملك عبد العزيز) على إصدارها ، مما لم يتوفر لنا ونحن نكتب دراستنا عنها ..

وحسبنا أننا قد سطرنا كلمات حق فى إنصاف الدعوة الوهابية ، عندما أكدنا وأبرزنا تجديدها لعقيدة التوحيد الخالص ، التى هى لب عقائد الاسلام وجماع فكريته ، وإسهامها بذلك الانجاز العملاق فى إعادة روح التميز والاستقلال إلى البناء الحضارى لأمتنا على جبهة العقائد والشعائر الدينية .. وألقينا الضوء على ريادتها فى هذا الميدان ، وقيامها بدور الطليعة فى حركة اليقظة التى بدأت بها أمتنا عصرها الحديث ..

وحسبنا أن الاخ الكريم الاستاذ محمد كمال جمعه قد اعتبر نقاط خلافه معنا « اجتهادات » « لاتشين الدعوة أو تسىء إلى أئمتها ومن ناصروها » ..

وفقنا الله جميعا إلى الصواب .. وهدانا إلى سبيله المستقيم ،،

○ الهوامش ○

(١) انظر ابو يعلي الفراء : (الاحكام السلطانية) ص ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م و (كتاب الامامة) ص ٣٤٠ ، ٣٤١ طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م – ضمن مجموعة عنوانها (نصوص الفكر السياسى الاسلامى – الامامة عند السنة) .

(٢) المجلد الأول . ج ١ ص ٢٦٣ طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .